

أثر المعتقدات الشعبية في التنشئة الاجتماعية للأطفال محافظه الشرقية نموذجا

د. عبد الحكيم خليل سيد أحمد¹

مقدمة:

تتعدد الدراسات التي تهتم برصد المؤثرات الاجتماعية الثقافية ذات الأثر في تربية الطفل وثقافته باعتبارها مرآة عاكسة لثقافة الجماعة بدءاً بالأسرة، من خلال توجهاتها وأساليبها في تنشئة أطفالها. إلا أن الدراسات التي تناولت أثر التراث الشعبي في التربية قليلة، وخاصة في مراحل التنشئة الاجتماعية الأولى للأطفال، وربما يعود ذلك إلى صعوبة البحث في التراث الشعبي وخاصة في ميدان المعتقدات الشعبية التي تتطلب جهداً بالغاً، ومشقة كبيرة في النفاذ إلى عقول الناس، والكشف عن مكنوناتهم الاعتقادية الخبيئة داخل صدورهم.

وتحاول هذه الدراسة التعرف على أثر المعتقدات الشعبية في التنشئة الاجتماعية للأطفال في إطار ثقافة ما ترتضيه الجماعة، من الأعراف السائدة والتقاليد والقيم المتوارثة والعادات المكتسبة التي قد تعود بجذورها الممتدة إلى الدين أو المعتقدات وما إلى ذلك، مما يشكل في النهاية ما يعرف بالثقافة الشعبية لهذا المجتمع. بما له من نتائج فكرية لازالت تتوارثها الأجيال وترويه في حقل التواصل الاجتماعي وتبادل الثقافة بين الناس. ومن ثم يمكن الاستفادة منها في إحداث التغيرات الملائمة لتربية الأطفال في عصرنا الحالي.

وتتمثل أهمية هذه الدراسة في أنها تسهم في التعرف على أحد جوانب الثقافة الشعبية وهو المعتقدات الشعبية لدى الأسرة باعتبارها نسقاً اجتماعياً منتظماً ومتكاملاً، تؤدي من خلاله وظائف وعمليات عديدة محورها وأهمها التنشئة الاجتماعية في إطار ثقافة المجتمع، بوصفها حاملة لعنصري الأصالة والمعاصرة؛ والتي أمكن لحاملها التوفيق بين معتقداتهم في الماضي والحاضر، وكذا نقلها عبر الأجيال،

1 عضو هيئة التدريس بالمعهد العالي للفنون الشعبية - بأكاديمية الفنون - مصر

لما تسهم به في إشباع حاجات نفسية وأمنية واجتماعية فشلت العلوم المعاصرة في إشباعها، وخاصة فيما يرتبط بالجانب الغيبي الدفين في أعماق النفس البشرية حتى تاريخنا المعاصر. وبالتالي فإن تجاهل هذه المعتقدات خلال التخطيط لعمليات التنمية الاجتماعية الشاملة – خاصة فيما يرتبط بالأطفال الذين يمثلون النواة الرئيسية لأي مجتمع العنصر الرئيسي لأي عمل تنموي (للإنسان) – يؤدي إلى عجز هذه التنمية في أن تحقق ثمارها وتؤتي أكلها كل حين.

كما تسعى هذه الدراسة لاستثمار المعتقدات الشعبية من منظور معاصر، وإعطاء بعد جديد لها داخل مجال التنشئة الاجتماعية للأطفال.. وذلك من خلال محاولة الإجابة على التساؤلات الآتية:

1- إلى أي مدى يمكن توظيف المعتقدات الشعبية في صياغة أساليب جديدة للتنشئة الاجتماعية عند الأطفال؟

2- مدى إمكانية استثمار ثراء الصيغ الاعتقادية داخل عمليات التنشئة الاجتماعية، وهو الأمر الذي يمكن أن يعطي الفرصة لإيجاد بدائل سلوكية سهلة التعلم والانتشار. مقارنة بتلك السلوكيات الوافدة إلي مجتمعنا المصري خلال عصر المعلوماتية والإنترنت.

وتهدف هذه الدراسة إلى الوصول إلى مرتسم واضح وتفصيلي عن التفكير الشعبي في أدق تفصيلاته وتقريعاته – بالمعتقدات – التي يمكن من خلالها الإحاطة بجوانب التفكير الخاصة بثقافة – الطفل – الإنسان المصري. وذلك من خلال التعرف على هذه الثقافة داخل إحدى محافظات الدلتا بالمجتمع المصري (محافظة الشرقية نموذجاً)، باعتبارها بيئة اجتماعية ذات خصوصية ثقافية تفردتها وتميزها عن المناطق الأخرى.

فالتراث الشعبي عنصر مشترك بين كافة الثقافات الفرعية، التي تتناقلها الأجيال وذلك يحد من شدة الصراع بين الأجيال، وينمي الانتماء لدى الفرد تجاه مجتمعه وماضيه، ويحقق أساليب علمية موحدة يتم استخدامها في عمليات التنشئة الاجتماعية للأطفال مجتمعنا على اختلاف بيئاتهم وثقافتهم الفرعية داخل المجتمع المصري.

وسوف نعتمد في دراستنا هذه منهج دراسة الحالة لمجتمع الدراسة كمنهج كيفي يعطي تنوعاً للمعلومات ويحيط بالظاهرة المراد دراستها وصفاً وشرحاً دقيقاً ومفصلاً.

ولكي نلج إلى موضوع دراستنا الذي نحن بصدد، وما يتوافر عليه من قيم ودلالات اعتقادية في محيطها الاجتماعي داخل الأسرة. فلعله

من الضروري هنا التعرف على مفهوم المعتقدات الشعبية، والتنشئة الاجتماعية، وأخيراً مفهوم الطفولة كي تستوفي الدراسة مقوماتها الموضوعية، وتتأسس على وضوح رؤية مفهومية وإجرائية لتحقيق مسعاها.

أ - المعتقدات الشعبية: Folk Belief

المعتقدات الشعبية: عبارة عن مجموعة من التصورات والأفكار الذهنية التي يؤمن أصحابها بصحتها، والتي لا تقبل الشك فيها لدى المعتقدين بها، باعتبارها إرث تنقله الأبناء عن الآباء والأجداد، فلازمهم مسيرة حياتهم، ولا زال يشكل في الوجدان الشعبي قدراً هاماً من ثقافتهم^(*) نحو تلك الحياة التي يعيشون فيها داخل مجتمعاتهم.

ب - التنشئة الاجتماعية: Socialization

التنشئة الاجتماعية: عملية تحويل الطفل من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي. وتتم خلال هذه العملية نقل ثقافة المجتمع إلى النشء، والتي يتحول من خلالها الطفل إلى فاعل يعرف كيف يتفاعل على نحو إيجابي مع المجتمع. وهو يفعل ذلك لأن شخصيته قد تشكلت عبر تمثل ما تحمله ثقافته من قيم ومعايير⁽¹⁾.

وهي العملية التي يتم بمقتضاها انتقال الثقافة من جيل سابق إلى جيل لاحق، عن طريق الأسرة المنوط بها قيامها بالتربية والتنقيف باستخدام أساليب وطرق متنوعة لأطفالها. فهي التي تنقل إلى الطفل — عن طريق التلقين والمحاكاة — الآراء والأفكار والمعتقدات والقيم والعادات السائدة في ثقافته؛ بما تحتوي عليه من إيجابيات أو سلبيات قد تتفق أو تختلف وشخصية أبنائهم، كما قد تتفق مع الدين أو مع الموروث الثقافي للمجتمع، إيماناً واعتقاداً من الوالدين بأهمية هذه المعتقدات في تشكيل وعي أبنائهم الديني والثقافي على حد سواء؛ باعتبارها الممثلة والداعمة لثقافة المجتمع.

ج - الطفولة: Childhood

الطفولة مصطلح يربطه العلماء بالمعيار الزمني والعمرى لحياة الإنسان اتسمت بالعجز والقصور والاعتمادية. هذه المرحلة الاعتمادية

(*) تنقسم ثقافة المجتمع إلى ثقافة عامة وهي: الثقافة الرسمية الخاصة بالمجتمع بشكل عام، وثقافة خاصة: وهي الثقافة الشعبية المنبثقة من الثقافة العامة والتي تميز كل جماعة عن بعضها في إطار من الخصوصية والتمايز الثقافي.

1سعد جلال، المرجع في علم النفس، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1962م، ص106.

تبدأ منذ الميلاد حتى سن الرشد. ومن أهم سماتها أنها متوارثة وفطرية أولاً، لتتحول تدريجياً إلى سمات مكتسبة تحتاج دائماً إلى الرعاية الأسرية وبخاصة الأمومة⁽¹⁾.

ويمثل الطفل في هذا المجال من الدراسة المتلقي الذي تدور حوله كافة الأشكال والممارسات الاعتقادية المؤثرة في عملية تنشئته اجتماعياً، وبالتالي هي التي يتم من خلالها تشكيل كافة أشكال السلوك الصادرة عن الطفل في مراحل نموه المختلفة، لتصبح ضمن نسيج شخصيته العامة التي تمنحه هوية الانتماء إلى عوالم الطفولة وأحاسيسها.

أولاً: العلاقة بين المعتقدات الشعبية والتنشئة الاجتماعية:

العلاقة بين الثقافة والتنشئة علاقة مترابطة ومتداخلة تتميز بالدينامية والحيوية، فالثقافة لا يمكن الحفاظ عليها وتنميتها إلا إذا كانت التنشئة الوسيلة الفعالة التي تحقق هذا النمو السليم، وحتى تنتقل الثقافة من جيل إلى جيل آخر يتطلب ذلك تدخل التنشئة لتكون الأداة الرئيسية التي عن طريقها تنتقل الثقافة من الماضي إلى الحاضر. ومن ثم فإن الوظيفة الجوهرية للتنشئة الأسرية تتمثل في محاولة صياغة الثقافة للنشء ونقلها إليهم. فالثقافة تعد من أهم المدخلات التي يُبنى بها الإنسان عن طريق التنشئة، التي تظهر وتتجسد في المخرجات، وبالتالي نجاح هذه العملية مقرون بدرجة وقيمة مخرجاتها المجسدة في الواقع اليومي المعاش.

ومن ضمن ما ينقل إليه من هذه الثقافة؛ تلك المعتقدات التي تؤمن بها الأسرة وتعتقد فيها اعتقاداً قوياً، وتحقق لها رغباتها وتساعد في إشباع احتياجاتها، بشرط صدق الاعتقاد والتسليم بأهميته في حياتها؛ كالاعتقاد في قدرة الأعمال السحرية والتحويلات والحسد... الخ. ولأهمية هذه المعتقدات داخل حياة الأسرة بشكل عام في إطار المحتوى الثقافي الخاص بها، والتي يساعد على إشباع احتياجاتها النفسية والروحية، مدعماً ذلك ببعث الأمان النفسي داخل النفس الإنسانية لدى الأسرة، فإنها تحاول جاهدة نقلها كلية دون التعديل فيها أو المساس بقيمتها وبقداستها إلى أبنائها خلال عمليات التنشئة

2 عبد الخالق محمد عفيفي، الأسرة والطفل، القاهرة، مكتبة عين شمس، ط1، 1998م، ص293.

الاجتماعية، والتي تمثل في جوهرها عملية صياغة الثقافة للفرد أو نقل التراث الاجتماعي والثقافي إليه.. من جيل إلى جيل آخر. لذا فقد تم التركيز عليها في هذه الدراسة لإبراز الدور التربوي لها، والذي يتغير بتغير الزمان والمكان، مع المحافظة على الكيان الثقافي المرتبط بالمعتقدات الخاصة بجماعة الأسرة، والتي يمثل فيها الطفل النواة الأولى لتكوينها.

فلمعتقدات الشعبية أهميتها التربوية، التي تستقي منها المعايير والقيم الاجتماعية "الخاصة" الملائمة للمجتمع، هذه المعايير تشمل أنواع السلوك التي ينبغي على الأفراد القيام بها وكذا أنواع السلوك التي يجب عليهم تجنبها، وهي الوسيلة التي تحقق التواصل بين أجيال المجتمع، مما ينمي الشعور بالولاء والانتماء لدى الفرد نحو مجتمعه. كما تلعب التنشئة الاجتماعية دوراً هاماً في استمرار وجود المعتقدات الشعبية بأنواعها، بين المعتقدين أنفسهم — الممثلين في جماعة الأسرة — وبين الأجيال المتعاقبة — والممثلة في الأطفال — حيث يمتص الإنسان خلال مراحل نموه — من الميلاد حتى الوفاة — معتقدات البيئة التي ينشأ فيها. حتى تصبح هذه المعتقدات جزءاً لا يتجزأ من التراث الثقافي لأفراد هذا المجتمع.

ثانياً: التنشئة الاجتماعية والتطبع الاجتماعي:

تمثل العلاقة بين عملية التنشئة الاجتماعية والتطبع الاجتماعي علاقة ترابطية وتكاملية كل منهما للأخرى، ليس هذا فقط بل إن عملية التطبع الاجتماعي للطفل عملية ممتدة بين أبناء الأسرة الواحدة، والتي قد يمثل فيها الطفل في مرحلة متأخرة من مراحل تنشئته أحد العناصر الفاعلة في عملية التنشئة الاجتماعية للأطفال الصغار المحيطين به، سواء كانوا داخل أسرته، أو ممن هم داخل دائرته القريبه.

حيث تستمر عملية التنشئة الاجتماعية للفرد منذ لحظة ميلاده وحتى وفاته. إلا أنه عقب مرحلة الطفولة المتأخرة؛ والتي تنتهي طبقاً للمحدد الزمني في عمر 18 سنة للراشد؛ يطلق علي عملية التنشئة الاجتماعية فيها مصطلح "التطبع الاجتماعي"، والذي يصبح فيه الفرد فاعلاً ومشاركاً فيما يُبث إليه من أفكار وقيم ومعتقدات؛ من خلال ممارسات سلوكية يؤثر فيها ويتأثر بها داخل محيطه الاجتماعي، بما يلاءم أدواره الاجتماعية الجديدة المنوط بها داخل أسرته وخارجها.

وكلاً من عمليتي التنشئة الاجتماعية والتطبع الاجتماعي لا تنفصلان عن بعضهما، فهما متداخلتان بدرجة كبيرة فيما تحمله كل

منهما من معتقدات الشعبية، فالأولى – التنشئة الاجتماعية – ترتبط بممارسة سلوكيات اعتقادية على الطفل باعتباره متلقي سلبي، بينما في التطبع الاجتماعي يشارك الطفل أسرته في ممارسة هذه السلوكيات باعتباره متلقي إيجابي. فمثلاً: الممارسات الاعتقادية المرتبطة باحتفالية السبوع بالنسبة للمولود الأول للزوجين، يكون الطفل هو محور الممارسات الاعتقادية مثل: الخوف عليه من الحسد، وعمل تحويطة له اتقاءً من الشرور وغير ذلك، بينما في الوليد الثاني أو الثالث يشرع الطفل الأول مع تقدم سنوات عمره في إرضاء جماعة الأسرة بالمشاركة في هذه الممارسات الاعتقادية بقدر ما؛ ليدل من خلالها على عضويته الجديدة الفاعلة داخل المجتمع الذي ولد فيه.

ثالثاً: المعتقد الشعبي بين الموروث والمكتسب:

يمثل المعتقد الشعبي عنصراً هاماً من عناصر الثقافة التي تتأثر بما يحيط بها من عوامل التغير، والتي يكون فيها المعتقد أقل عرضة للتغيرات من غيره من عناصر الثقافة من حيث المضمون، أما من حيث الممارسات السلوكية الدالة على هذا المعتقد فهي أكثر عرضة للتغير لتواكب عوامل الزمن والتقدم المصاحب له، بهدف المحافظة على وجود هذه المعتقدات وتدعم إستمراريتها بين أفراد الجماعة الواحدة بما يحفظ للمجتمع هويته واستقراره.

كما أن العديد من الأفكار التي تحل مكاناً في عقولنا الإيجابي منها أو السلبي؛ تختلف في مصادرها من شخص لآخر. لكن قد نشترك جميعاً في توارث بعض الأفكار من الوالدين. وبالطبع تتغير أفكارنا في كل مرحلة عمرية، وقد يكون ذلك بسبب خوضنا مواقف وتجارب معينة، وتعاملنا مع بعض الأشخاص الذين قد يكون لهم بعض الأثر في حياتنا.

كما يساهم في عملية التنشئة الاجتماعية للأطفال مجموعة الأنساق المؤثرة في أفكار الأفراد في المجتمع والمتمثلة في: العائلة، المدرسة، وسائل الإعلام، الزملاء والأصدقاء، رفاق العمل والأندية في المجتمع. حيث يتأثر الأفراد بجميع هذه الأنساق بنسب متفاوتة. ويظهر ذلك جلياً على تصرفاتهم. وخير دليل على ذلك أنه قد تتعارض بعض الممارسات الاعتقادية مع نص ديني أو أيولوجية معينة، فيقوم الممارسين لهذه الممارسات بتغييرها ولو على المستوى الظاهري؛ ليتفادوا بذلك التعارض بين النص الديني والممارسات السلوكية الاعتقادية مثل: دق الهون في احتفالية السبوع، والتي أثارت جدلاً بين

فقهاء الدين باعتبارها فعلاً مخالفاً للسنة النبوية، فتحول السلوك إلى استخدام بعض الأغاني الشعبية المرتبطة باحتفالية السبوع المصاحبة لدق الهون عبر جهاز الـ(DG) الذي ذاع وانتشر استخدامه منذ بداية هذا القرن.

رابعاً: المعتقدات الشعبية المرتبطة بالطفل

نقصد بها تلك المعتقدات التي ارتبطت بالوالدين، وبالصيغة الاعتقادية التي يتم التعبير عنها من خلال ممارسات ذات دلالة اعتقادية؛ والتي تشكل مستوى الوعي السائد عند الوالدين داخل مجتمع الدراسة، والتي سوف تُثقل مدلولاته عبر ممارسات سلوكية ومرويات وحكايات شفوية لأطفالهم بعد ذلك، بما يؤثر في سلوكياتهم ومكونات شخصياتهم في مستقبلهم القريب.

ولعل حدوداً مرحلية متعددة تكتنف المعتقدات الشعبية، بما لا يمكن فيه الحديث عنها بعمومية وإطلاق، خاصة وهي ترتبط بكافة نواحي الحياة الاجتماعية، كما ترتبط بكافة مراحل حياة الإنسان العمرية. من هذا المنطلق الذي يذهب بموضوعية إلى معاينة المعتقدات الشعبية — ارتباطاً ومراحل التنشئة الاجتماعية للأطفال —، فقد صار من اللازم تجزئتها إلى مرحلتين رئيسيتين: المرحلة الأولى: هي المعتقدات الشعبية المتعلقة بمرحلة ما قبل ميلاد الطفل، والتي تبدأ منذ لحظة البحث عن إنجاب طفل لاكتمال سعادة الأسرة ومقوماتها، مروراً بعملية الحمل والوضع للجنين، بينما المرحلة الثانية: فهي التي تبدأ عقب مرحلة الوضع مباشرة وتُلَقَّى وليداً يجتهد الوالدين والمقربين لهما في المحافظة عليه، وتنشئته بما يحفظ له حياته ويساعده على النمو والتعلم في إطار حياة أسرية مستقرة.

المرحلة الأولى: المعتقدات المتعلقة بمرحلة ما قبل ميلاد الطفل:

1- البحث عن الإنجاب:

الزواج في أبسط معانيه عبارة عن إتحاد رجل وامرأة في إطار شرعي مقنن؛ على أساس من الود المتبادل مدى الحياة. كما يشمل الاتفاق في العقيدة والقيم والاتجاهات والميول والأفكار الأساسية والنظرة إلى الحياة بوجه عام.

وبإتمام عملية الزواج، وفي إطار هذا الاتفاق السابق الإشارة إليه يسعى كلا الزوجين إلى الحصول على طفل لإشباع رغبة الأبوة والأمومة، لتكوين أسرة تمثل المحيط الاجتماعي الأول الذي سوف يفتح الطفل فيه عينيه على الحياة، لينمو ويتربص في أوساطه، ويتأثر

بأخلاقه وسلوكياته، ويكتسب من صفاته وعاداته وتقاليده في إطار معتقدات ذات مرجعية دينية وشعبية. يبدأ خلالها تأثير الوالدين على أبنائهم قبل وبعد ولادتهم.

فنجد أولى المعتقدات التي ترتبط بمغذى الإنجاب تلك التي تبدأ منذ ليلة الزفاف؛ حيث يربط كلا من العروسين قطعاً من معدن الرصاص حول الوسط وأسفل الملابس إلي ما بعد ليلة الزفاف، أو قد يستبدل بخيط من شبك الصيد، أو ارتداء الملابس الداخلية بالمقلوب، اعتقاداً منهم بأنها ترد الأعمال السحرية وتعكسها. وكذا دخول الزوجين لمنزل الزوجية لأول مرة بالقدم اليميني؛ كنوع من التفاؤل وتيمناً للحصول على البركة، وفي بعض المجتمعات يلزم العريس حمل عروسه إلى داخل غرفة نومهما؛ حتى لا تخطو فوق عمل سحري قد أعد لهما، اعتقاداً منهما بأن هذا الفعل يُبطل مثل هذه الأعمال. كما تستخدم عناصر أخرى طبيعية في بعض الممارسات السحرية خاصة المياه، مثل رش ماء وملح، أو التنظيف بماء رجلة... إلخ.

ولأهمية الإنجاب وقيمه الاجتماعية للأسرة، في حالة تأخر الزوجين عن الإنجاب يبدأ التردد على الأطباء، على الرغم من أن فترة الزواج قد تكون لم تتجاوز الشهرين أو الثلاثة أشهر في بعض الزيجات. وربما يبدأ الطريق إلى الممارسات الاعتقادية من خلال اللجوء إلى الدجالين والمشعوذين لاستطلاع الأمر واستجلاء الحقيقة، هذا ولا تختلف الأسرة الريفية عن الحضرية في ذلك. ولا ترتبط الممارسات ذات الدلالة الاعتقادية بطبقة اجتماعية دون غيرها، أو بدرجة تعليمية أو علمية بعينها، لكون هذه الممارسات لا تتم علانية، وإنما يراعى أصحابها ممارستها في جو يسوده السرية والكتمان عن المحيطين بها، مع عدم إفشائه إلا في حالة نجاح هذه الممارسات في إشباع حاجات خاصة بممارستها في بعض الحالات (*).

وعادة ما يقوم الدجالين والمشعوذين بتفسير أسباب تأخر عدم الإنجاب إلى أن بعض حُساد العريس قد قام بربط العريس ليلة الزفاف — والربط؛ بما يعني إخفاق العريس عن الممارسة الجنسية أو إقامة علاقة حميمة مع زوجته بشكل طبيعي — بمعنى تسويفه لعملية إزالة

(*) أفصحت إحدى الإخباريات داخل مجتمع الدراسة - للباحث - والتي تحمل درجة الدكتوراه في تخصص علم النفس "الإرشاد النفسي" عن كونها مارست الكثير من هذه الممارسات دون إيمانها العميق بها، ولكنها كانت مضطرة لموافقة والده زوجها وأمها للحصول على أطفال في بداية زواجها؛ حتى تحتل مكانة اجتماعية عالية بين أفراد أسرة زوجها بشكل خاص.

بكاراة العروس، مما يصيب أهلها بالقلق أو وضع العريس في موقف حرج - أسرياً - يشير إلى ضعفه الجنسي. بما يدفع العريس للسعي إلى شخص معروف يختص بالربط، لإجراء عمل مضاد لفك الربط، كأعداد بيضتين للأكل يكتب المعالج عليهما بعض التعاويذ ويطلب من العريس ابتلاعهما ليعود إلي طبيعته. أو قراءة بعض التعاويذ على كمية من الماء ليغتسل بها العريس؛ وفي بعض الحالات العروس أيضاً. وبعد (فك) ذلك العمل سرعان ما تحمل العروس. وتتعدد الطقوس الخاصة بضمان إنجاب الأطفال وتتنوع تنوعاً كبيراً طبقاً لأهمية الإنجاب خاصة الذكور؛ ودرجة الاعتقاد الشعبي لدى كلا الزوجين.

ففي حالة ما إذا كانت الفتاة متزوجة حديثاً، ويعتقد أنها غير قادرة على الحمل، فإنه غالباً ما يعاد تمثيل مراسم الزواج بالنسبة لها، وإن كان ذلك يتم في المنزل وعلى نطاق أسري محدود، وتقوم به سيدات غير حائضات، وبفسف الطريقة التي تتم بها المراسم الحقيقية، كما تقوم الزوجة أيضاً بصنع دميتين، إحداهما تمثلها والأخرى تمثل الزوج، ولا يشارك في هذه العملية إلا الصديقات والأقارب من السيدات، حيث يتم وضع الدميتين في الفراش، والهدف من هذه العملية هو تخفيف صدمة الزواج الأولى عند الزوجة والتي ربما تكون سبباً في عدم قدرتها على الحمل⁽¹⁾. أما إذا تقادمت عملية الزواج بعد فترة من الزمن، فسرعان ما تقدم الزوجة في حالة تأخر حملها إلى اللجوء إلي ضروب الممارسات الشعبية لتستجلب بها الحمل.

ويلاحظ أن الممارسات من الكثرة والتنوع والانتشار بصورة كبيرة تعكس بوضوح مدي حرص العقل الجمعي علي توفير أسباب الخصوبة، وإزالة أسباب العقم لتمكين الأنثى من أن تتجب. فالمرأة الولود تحظى بحب الزوج ورعايته واحترام أفراد أسرته وتقديرهم وخاصة النساء. ومن هذه الممارسات (النوم في المقابر أو بين قضبان السكة الحديد، الذهاب لشيخ معالج ليقوم بعملية إرضاء القرين أو القرينة التي تسكن تحت الأرض من خلال وصفات سحرية خاصة، استخدام العروسة الورقية والبخور، عمل أحجبة^(*))، تناول وصفات

1 غريب سيد أحمد وآخرون، علم الاجتماع العائلي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995م، ص 154، 155.
(*)الحجاب: عبارة عن بعض الكتابات السحرية التي تهدف إلى تحقيق بعض الأغراض ويطلق عليها في بعض المجتمعات "التحويطة". وللأحجبة أغراض مختلفة منها منع الحسد أو تحقيق بعض المطالب، مثل القبول،

علاجية شعبية، أو الذهاب لأضرحة الأولياء للدعاء بداخلها والتبرك بأضرحتهم، وتقديم الشموع والنذور لهم، والدوران حول المقام سبع مرات^(*)، وغير ذلك من الممارسات التي تعكس تلك الكيفية التي يوظف فيها المعتقد الشعبي في صياغة أساليب جديدة للتنشئة الاجتماعية التي يتم انتقالها للأطفال عن طريق المشاهدة أو المحاكاة.

كما توجد بعض الممارسات الاعتقادية الأخرى للوقاية من العقم والتهينة للحمل مثل: قراءة نصوص دينية أو أدعية قبل الاتصال الجنسي "اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني"، عدم خروج العروس قبل السبوع أو الأربعين حتى لا تكبس أو قبل أن يهل الشهر العربي؛ وإذا خرجت قبل مرور شهر لابد من أن تحمل وردة في يدها أو حبة زهرة أو خوص من البلح، مراعاة توقيت الاتصال الجنسي "الأيام التي تكون فيها الزوجة مهيأة للحمل: أي بداية من الأسبوع الثاني من الدورة الشهرية وحتى ما قبل الدورة الشهرية بأسبوع" — ذبح ذبائح معينة — لا تزورها سيدة حائض "عليها الدورة الشهرية" حتى لا تكبس — عدم دخول الزوج على زوجته وهو حالق ذفته بعد دخوله بها — عدم دخول لحوم عليها — عبور أماكن خربة — عبور الزوجة على طير مذبح بدمه — العبور من تحت ميت أو الاستحمام بغسل ماء الميت — العبور على قطعة كبيرة من الكبد وبعد يوم تطبخها وتأكلها لاحتوائها على دم — لبس خرزة زرقاء — إلقاء ديك أو سحلية أو أي شيء من الحيوانات مثل الثعالب على الزوجة لكي يحدث خضه لها فتحمل — استخدام الكي أو الحجامة — العلاج بالزار. وهذه الأساليب التي تلجأ إليها النساء سعياً للحمل تحقق نوعاً من الحالة السيكلوجية لتحقيق الانفراج النفسي، وتجسيم تلك الدرجة البالغة من جنون الأمل الذي توفره الطقوس السحرية⁽¹⁾.

وأخرى لمسائل الحب والزواج، أو للحماية من آثار الأعمال السحرية، أو من التليس، وما يخص الطفل أيام السبوع التي يحملها الإنسان والتي قد تكون من صنع الأم أو الجدة طبقاً للمعتقدات التي يحملونها بداخلهم. سامية حسن الساعاتي، السحر والسحرة، بحث في علم الاجتماع الغيبي، ط2، دار قباء للطبع والنشر، 2002م، ص222.

(*) يذكر "دي شابيرو" سنة 1798م في "وصف مصر" أن المصريين المسلمين "يقصدون عدداً من الأولياء الموتى، وهم لا يعظمونهم إلا لكي ينالوا منهم الصحة لأنفسهم أو الخصوبة لزوجاتهم العقيمت، ويرون في أولياتهم القدرة على إبطال مفعول الحسد والسحر المؤذي، ذلك الجهل والتعصب يحملانهم على أن ينسبوا لمجرد نظرة سريعة من العين الكثير من التأثير الضار على صحة المرء بل على حياتهم كلها. دي شابيرو، وصف مصر: دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، ترجمة زهير الشايب، مكتبة الخانجي، ص44.

1 محمد أحمد غنيم، العادات والتقاليد الشعبية في محافظة الدقهلية - دراسة أنثروبولوجية دورة الحياة من الميلاد حتى الزواج، الجزء الأول "الميلاد"، المنصورة، مطبعة الجامعة، ط1، 1996م، ص50.

2- فترة الحمل والاستعداد لاستقبال مولود جديد

وهذه المرحلة وإن كانت متجهة إلى الطفل واستقباله في عالمه الجديد إلا أنها تضع مبدعه في مستوى الكبار وسلوكياتهم ذات الدلالة الاعتقادية فيما يؤدونه من ممارسات ترتبط بهذه المرحلة.

حيث تبدأ قصة الطفل في الحياة الشعبية مع الأم؛ فهي مبتدأ هذه المرحلة ومستودع أسرارها. ففي بداية الحمل تتخذ المرأة في مجتمع الدراسة احتياطات مشددة لعدم إصابتها بالحسد بالنسبة لها أو لجنينها الذي لم يأتي للدنيا بعد، لذلك فتحاول المرأة الحامل أن تحيط أمر حملها وخاصة الحمل الأول بشيء من السرية عن المحيطين بها، وخاصة إذا كانت مقيمة داخل عائلة كبيرة (الأسرة الممتدة). وإذا ما حدث واستفسر الجيران أو الزوار بشأن هذا الحمل فإن المرأة قد تلجأ إلى الإعلان عن حملها؛ وإن كان ذلك يتم مع قدر من التمتع والتردد. وخلال هذا الشهر يُقال إنها تكون عرضة للشعور بالدوار (دايخة)، وتميل كثيراً للتمدد والرغبة في النوم، ويسود الاعتقاد بأنه في هذه الفترة؛ يبدأ تشكيل الطفل المنتظر، ومن ثم لا يجب على أي شخص أن يوقظ المرأة الحامل إذا كانت نائمة، خشية أن يؤدي هذا الإزعاج إلى الإعاقة أو التدخل في عملية الخلق. لذلك، فإن ما يحدث من تشوهات خلقية أو عوارض شاذة للطفل، كولدته بستة أصابع، أو بشفة مشقوقة، أو بجمهة منتفخة، يعزي إلى حقيقة أن الأم قد أزعجت من نومها خلال هذه الفترة.

كما نجد في هذه المرحلة ما يسمى "بالوحم"، وفي المعتقد الشعبي أن المرأة الحامل إذا اشتتهت طعاماً ما أو بعض المأكولات - توحمت عليها - ولم يحضر لها فإن شكلاً ما يشبه هذا الطعام أو تلك المأكولات يظهر على جسم الطفل الوليد ويسمى "وحمة"؛ مثلاً إذا اشتتهت المرأة الحامل حبة مانجو ولم تُحضر لها فإن شكل هذه الحبة يرتسم في المكان الذي ستحكه هذه المرأة على جسم وليدها بعد عملية الوضع.

ويعتقد أن المرأة الحامل إذا أعجبت بطفل ما، أو رَجُلٌ له صفات محترمة، أو امرأة ذات جمال وخلق؛ فإن المولود سيحمل شيئاً من صفات هؤلاء، لذلك يلجأ أهل المرأة الحامل إلى إبعادها فترة الوحم عن رؤية بعض الأشخاص الذين يتصفون ببعض الصفات غير الحميدة، أو مشاهدة الحيوانات والمناظر التي سيكون لها بصمة ما

على المولود، والمقصود من هذا العمل هو حماية الجنين من القوى المنظورة والخفية.

3- معتقدات متعلقة بمرحلة وضع الجنين "الولادة":

خلال هذه المرحلة وإن كان الطفل فيها هو النتيجة النهائية لها، إلا أن كافة أشكال الممارسات ذات المغزى الاعتقادي لها، يرتبط به، ويمثل له مرحلة الانتقال من عالم الرحم إلى عالم الدنيا، وهي المرحلة الثانية التي أشار إليها "أرنولد فان جنب" Arnold van Gennep في نظريته "طقوس العبور" باعتبار هذه المرحلة مرحلة انفصال عقب مرحلة اندماجه وتوحده مع أمه داخل رحمها وهو جنين لا يمكنه الحياة بدونها، ومن ثم فهو يستمد أسباب بقائه حياً من خلالها مباشرة عن طريق وسائل التغذية الربانية التي كفلها له ربنا ﷻ داخل رحم أمه. وتبدأ المرأة في هذه المرحلة بالتحضير للولادة عند حلول الشهر التاسع، فتجهز الملابس إما من الخرق إن كانت العائلة فقيرة، أو تشتري ملابس جاهزة إن كانت ميسورة، وجرت العادة أن يرسل لذوي المولود الجديد ملابس من جيرانه ومحبيه إذا كان الزوجان لا يعيش لهما ولد، اعتقاداً بأن هذا التصرف يجنب المولود الأخطار المحدقة به وبخاصة خطر "التابعة". وعندما تحين لحظة الولادة يذهب الزوج إلى "الداية" إن وجدت، أو إلى العجائز العارفات بشؤون التوليد لإتمام عملية توليد زوجته.

ولأهمية عملية الوضع بالنسبة للأم الحامل فتخصص لها أفضل الأماكن لإجراء عملية الوضع^(*)، مثل غرفة لا يدخل أحد عليها إلا بإذنها (علشان محدش يكبسها لما يدخل عليها زي واحدة عليها العادة)، وقد تكون غرفة في أرضية المنزل أو حجرة ضعيفة الإضاءة، على أن لا يوجد بها تيار هواء يصيب المولود أو الأم بنزلة برد. وعندما تتأهب المرأة لعملية الولادة في بعض المجتمعات ولا سيما القروية منها، يرفعون الأغشية عن الأواني ويفكون العقد المربوطة، ويفتحون النوافذ لتسهيل عملية الولادة، كما أنهم يستعينون لتسهيل هذه العملية، بمفتاح ضريح أحد الأولياء ليضعونه على ظهر المرأة لتيسير الوضع

(*) وهو ما يتفق مع ما أدركه المصري القديم بفطرته في أهمية هذه المرحلة، حيث قام بعملية "عزل" للأم التي أتمت شهور الحمل وعلى وشك الولادة، في مكان معين بالمنزل، بعيداً عن حركة الأسرة الدائبة وبعيداً عن أعين الفضوليين والحاسدين، اصطلاح العلماء على تسمية هذا المكان بـ"عرش الولادة". السيد حامد وعليه حسن حسين، أنثروبولوجيا مصر، الجزء الثاني، جامعة القاهرة، 1995م، ص 210 - 214.

المتعسر. كما ترتفع الدعوات للأولياء وبخاصة للسيد البدوي من أجل "فك الضيق" عن الحامل. فضلاً عن استخدام البخور^(*) لطرد الحسد أو العين الشريرة وخاصة وقت صلاة الجمعة.

وتقول الداية عند بدء عملها: "يا رب يا حنان يا كريم فكّ عقدتها"، وتقول أيضاً: "يد الله غلبت يدي، ويدي غلبت اللعين" أي الملعون وهو الشيطان أو الجنى، وتقول أيضاً: "يا نوح، يا مخلص روح من روح". وتبذل الداية كل جهدها لتلد المرأة الحبل دون أن تتعسر الولادة أو تموت المرأة أو يموت المولود. وقد تلجأ إلى بعض الممارسات الاعتقادية لتحقيق هدفها كدرجة المرأة الولادة يميناً وشمالاً على عباءة رجل كريم، وتطعمها السمن والتمر والبيض أو السكر أو تسقيها شراب القرفة أو تقلدها حرزاً في أدعية وآيات قرآنية.

وتعتقد بعض النساء أن من أسباب تعسر الولادة غضب الحماة (أم الزوج) على زوجة ابنها، فتطلب الداية من الحماة أن تغسل قدميها في إناء ثم ترسله إليها فتسقي الزوجة الولادة من هذا الماء اعتقاداً منها أن هذا التصرف سيخفف من آلام الولادة.

أما عن دلالة توقيت الوضع من حيث الاستبشار أو التطير (التفأل أو التشاؤم)، فإذا ولد الطفل يوم جمعة يسمى جمعة أو في رمضان يسمى رمضان، والولادة في المناسبات الدينية تدعو للاستبشار مثل: الولادة في الأعياد أو في المواسم مثل موسم نصف شعبان أو 27 رجب أو المولد النبوي أو عاشورا أو غير ذلك من المناسبات الدينية. كما يقال أن المولود في الشهر السابع يكون عصبي وشقي ويقال عنه ده ابن سبعة، وإذا ولدت الأم في الشهر الثامن خطأ يقال بأنه غلط يموت الجنين. كما يتشاءم البعض من يوم 13 في الشهر ويستحب

(*) استخدم البخور في الطقوس الدينية منذ القدم كما أوضحت ذلك المخطوطات المصرية القديمة، حيث استخدم لمراسم الدفن ولتحنيط جثث الفراعنة، أما الآشوريين فقد استخدموه في المعابد، كما استخدمه الرومان في حرق الموتى. وقد استخدم البخور (المبخرة) في الطقوس الشرقية كجزء أساسي من القداس نتيجة وجود صلوات خاصة بالبخور والغفران، فالبخور هو رمز للتطهر. هذا ويلاحظ أن البخور مادة مشتركة تستعمل في مزارات المسلمين كما تستعمل داخل كنائس المسيحيين على حدٍ سواء. وقد جرت عادات المصريين على أن يتبخروا بالبخور الذي يخزنونه طوال السنة في بداية السنة الهجرية في مناسبة الاحتفال بيوم عاشورا لارتباطه ببعض معتقداتهم، إذ كانوا يظنون أن البخور يُبْرِئ من العين والحسد... ، كما كان من عادة النساء المصريات في هذا الموسم أن تخرجن إلى الأسواق لشراء الخواتم والبخور الذي يطلقته في بيوتهن حتى تصرف عنها العين والحسد والكسل والأمراض. أنظر: سلسلة الندوات المتخصصة (الفاطمية وقضايا الأمة) (9)، مركز المقدمات للنشر، بيروت، ص16.

الوضع في الجزء الأخير من الشهور العربية في يوم 20 أو 25 من الشهر العربي لكي يمر على الواضعة شهر عربي ويدخل شهر عربي جديد حتى لا تكبس المرأة الوالدة (المشاهرة).

المرحلة الثانية: معتقدات متعلقة بمرحلة ما بعد الميلاد:

تتعدد الممارسات الاعتقادية المرتبطة بمرحلة ما بعد عملية وضع الجنين أو ولادته (الميلاد) والتي تستهدف جميعها بشكل مباشر أو غير مباشر الوليد الطفل (ذكر أو أنثى). فهناك ممارسات اعتقادية تقوم بها الداية (المولدة)، وهناك ممارسات تقوم بها الأم أو تتعلق بها فيما يحفظ لها طفلها من الأخطار غير المنظورة أو غير المعلنة (الحسد، الكيسة.. إلخ)، وأخيراً ممارسات اعتقادية تتعلق مباشرة بالطفل مثل: كيفية استقباله، تسميته، وقايته من الحسد، الزيارات الأولى منه وإليه، ختانه، عمل عقيقه له، والحكايات الشعبية الملقاة على مسامعه في إطار الصعيد الثقافي، فيما يرتبط بعملية التنشئة الاجتماعية للطفل في محيط اجتماعي تمثله الأسرة والدائرة القرابية المحيطة به.

1- ممارسات اعتقادية تتعلق بالداية (المولدة):

أول ما تقوم به الداية المولدة (القابلة) عند نزول الوليد من بطن أمه تنظيفه وتدفيته، وربط سرة الوليد أو الحبل السري (المشيمة)، وقطع الخلاص والاحتفاظ به لحين إلقائه بنفسها أو إحدى قريبات الأم الوالدة في مجرى مائي (النيل، ترعة)؛ مع مراعاة أن تكون فرحة ومسرورة ومتبسمة عند القيام بذلك اعتقاداً منهم بأن ذلك يجعل الطفل سعيداً ومبتهجاً دائماً، وإذا أهملت في واجبها فيما يتعلق بذلك فإنه يكون تعيساً دائماً. وإذا ولد الطفل ولم يصرخ تقوم الداية بالنفخ في منتصف رأسه كما تفرك الداية الشبة برأس الوليد، وتسقيه الماء والسكر لتنظيف بطنه.

2- ممارسات اعتقادية تتعلق بالأم:

إذا ما أردنا أن نرصد تلك المعتقدات المرتبطة بممارسات الوالدين أو الأم خاصة، فإننا سوف نجد بين طيات سلوكهما وبخاصة الأم قدومها على الإتيان بأفعال لم تنزع عنها قشرة الحضارة بشكل ظاهر، مما قد ينم عن تلك البدائية وبخاصة ما تعلق منها بالمعتقد الشعبي وخاصة ما يتعلق بالأعمال السحرية منها.

حيث نجد من الأمهات من ترتدي "كفاً" مصنوعة من الذهب أو عينا زرقاء موشحة بالذهب أو الفضة، بحيث تكون في مواجهة من يقع

بصره عليه. والباعث على ارتداء تلك الكف أو العين، ليس باعثاً جمالياً، بقدر ما هو باعث سحري. فالمرأة التي تتعمد القيام بمثل هذه الأفعال تخشى في أعماق نفسها من أن تصاب هي أو طفلها بنظرة حسد، أو بلون آخر من ألوان السحر⁽¹⁾.

كما تعلق على المرأة النفساء خرزة الكبسة حتى لا تكبسها النساء غير الطاهرات. كما يحرص أهل الطفل على دفن دم النفاس في البيت في مكان لا يراه أحد وأن لا يخطو فوقه أحد. كما يحرسون على ألا تلتقي امرأتين في أربعين بعضهما بما يضرّ بالأطفال الحديثي الولادة (طفل مكبوس) أو بالأمهات (أم مكبوسة).

أما عن الإجراءات والممارسات التي تقوم بها الأم عقب عملية الولادة، فنقوم بتبخير الوليد ووضع مقص بجانبه — حتى لا يبذل من أخته اللي تحت الأرض —، أو مصحف لوقايته من الأعمال السحرية، أو حبة ملح لوقايته من الحسد.

كما أن المرأة التي يموت طفلها يعتقد بأن "وجهه نحس علي أمه"، وإذا مات الأب ساعة ولادة الطفل فيقولوا "ربنا استبدله، ربنا عوضها راجل خلف لأبوه". أما المرأة التي يموت أولادها فهي منظورة وتعالج بالذهاب للمشايخ لتقدم من خلالهم القرابين كنوع من أنواع الاسترضاء لهم، أو لاعتقادها بأنها أثارت غضب "أختها أو قرينتها" أو كلتاها وأنهما تأخذان الأطفال منها. كما يتم قراءة القرآن لها، أو يذبح لها الذبائح، أو تقوم بزيارة الأولياء، أو تعالج بذبح حيوان أو طائر تحت رجلها ويدفن تحت المنزل. أو تعالج بتعليق الخلاص على باب الشقة بعد الولادة مباشرة.

وهناك من تحمل طفلها بين ذراعيها وعلى رأسها "قُفَّة" مصنوعة من سعف النخيل وتخرج من بيتها طالبة "الحَسَّة" للطفل، أي تطلب إحساناً له، وهي تفعل ذلك مهما كانت درجة غناها وتتصرف كأنها امرأة شديدة الفقر، ويعطيها بعض الناس نقوداً ويعطيها آخرون الخبز وغيره من أنواع الطعام، بعد ذلك توزع هذه العطايا على الفقراء في القرية، حتى وإن كانت فقيرة مثلهم، وهي تعتقد أنه نتيجة لهذا العمل يجعلها الله "أو قرينتها" تحتفظ بطفلها⁽²⁾.

1 سامية حسن الساعاتي، السحر والسحرة، مرجع سبق ذكره، ص151.
2 محمد أحمد غنيم، ثورة الحياة من الميلاد حتى الزواج، مرجع سبق ذكره، ص 326.

وهناك تعويذة أخرى تضعها الحامل إذا كان أطفالها يموتون قبل أن يصلوا إلى سن السابعة، وهي تتكون من رأس هدهد وظفر حية وقطعة من الشفة السفلى وأذن حمار ميت وناب جمل وحرباية وتعويذة مكتوبة، كل هذه الأشياء تُعلّقها الحامل تحت إبطها الأيمن أثناء فترة الحمل وبعد الولادة يلبسها الطفل.

وهناك احتياطات معينة لابد أن تتبعها المرأة بعد أن تلد طفلها، فالمرأة التي فقدت مولودها حديثاً لا يسمح لها بدخول الغرفة التي يتم فيها توليد امرأة أخرى، كما يحظر دخولها عليها لمدة سبعة أيام بعد الولادة، وإذا اخترق هذا الحظر، فإن المرأة التي كانت تضع مولودها لن يكون في ثديها لبن لوليدها. وإذا تصادف أن إحدى القطط ولدت ومات أولادها جميعاً في بيت ما ووضعت امرأة طفلاً في البيت نفسه الذي كانت تعيش فيه القطّة مع أولادها فلا بد من إخراج القطّة من البيت؛ وإلا فإن الطفل قد يموت، وإذا عاش الطفل فإن الأم لن يكون في ثديها لبن (1).

3- ممارسات اعتقادية تتعلق بالطفل

عند نزول الطفل من بطن أمه تفسر أول صرخة تنطلق منه على أنها رد فعل لمجيئه من "الضيق" إلى "العالم الواسع" وعقب نزوله مباشرة يتم لفه في ملابس مغسولة من الملابس القديمة للأب أو الأم. وعند وضعه على الفراش توضع بجواره مصوغات الأم التي تكون قد خلعتها قبل الوضع، وذلك كإيماء إلى أن الأم لم تعد مجرد عروس (في حالة الطفل الأول)، بل قد أصبحت أيضاً أمّاً، وأن قيمة الطفل عندها أكبر بكثير من قيمة مصوغاتها. وفي حالة ما إذا كان الوليد ذكراً، توضع بجواره أيضاً بعض الأشياء الأخرى، كالمقص، وسكين حادة، إذ تتم معالجة عينيه بالكحل لحماية لهما (2).

وعن الممارسات الاعتقادية عقب نزول الطفل يقوم الأب أو الجد الكبير أو الداية أو الجدة أو الخال بالأذان الشرعي للطفل في أذنه اليمنى والإقامة في أذنه اليسرى، ويصاحب ذلك تلاوة آيات معينة من القرآن والعبارات مثل: "بسم الله" و"الله أكبر" و"لا حول ولا قوة إلا بالله"، قراءة آية الكرسي والفتحة والإخلاص وبعض الآيات القرآنية،

1 وينفريد بلاكممان، الناس في صعيد مصر: العادات والتقاليد، ترجمة أحمد محمود، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 1995م، ص42: 45.

2 محمد أحمد غنيم، دورة الحياة من الميلاد حتى الزواج، مرجع سبق ذكره، ص106.

وذلك حتى يكون مؤمناً صالحاً منذ اللحظة الأولى من حياته حتى يهديه الله، كما يتم الدعاء له مثل: "اللهم ارزقه رزقاً حسناً واسعاً واجعله خلفاً صالحاً". ويتم تحنيك الطفل (رفع سقف حنكه) وهي سنة عن النبي (ص) مثلما حنك الحسن والحسين بتمرّة في فم كل منهما.

وبالنسبة للمسيحيين تتم طقوس معينة بعد الولادة تقريباً، حيث يأتي القسيس ويعمل ما يسمى بصلاة الطشت، كما يصلي القسيس على الطفل صلاة الشكر لله من أجل سلامة الأم والولادة وتسمى (صلاة الطشت) نظراً لاستخدام الطشت في غسل الطفل، ويزينه بزيت الزيتون، حتى يحفظه الله إلى أن يتعمد ويمتلئ من الروح القدس ويغطسه 3 مرات في الماء. كما يقولون للطفل عبارات "باسم الصليب — نشكر ربنا عطايا الله كلها حسنة"، ويقومون برسم الصليب عليه وتلبسه صليب صغير. وذلك اليوم وخلال الطقس يشترك الكاهن مع الوالدين في اختيار اسم قبضي للوليد — يختارونه غالباً من أسماء القديسين والشهداء.

أما فيما يرتبط بالحبّل السري (المشيمة أو الخلاص) والذي يمثل نهاية المرحلة الأولى من العلاقة الجنينية بأمه؛ فهو يمثل ارتباطاً وثيقاً بالمعتقدات الشعبية للمجتمع المصري، وقد حمل عبر التاريخ في التقاليد الشعبية دلالات مختلفة تتعلق بمصير المولود. ويمكن أن نتتبع هذا الأمر في الممارسات الاعتقادية المتعلقة بكيفية التخلص منها أو الاحتفاظ بها في بعض الأوقات، وهناك اعتقادات وأراء على أن الحبّل السري يمكن أن يلخص حياة المولود؛ فالكثيرون يقرؤونه، ويمكن لبعضهم قراءة كلمات من خلال الحبّل السري تدل على مستقبل الطفل^(*). وبما أنها تلخص حياة الطفل فكان لها معتقدات خاصة فيها، ومن ذلك أنه لا يجوز أن يقع الحبّل السري في أيدي عدو لأنه من الممكن أن يعمل له عملاً ما كالسحر، والذي يتسبب في التأثير سلباً على مستقبل الطفل، وبناء على هذه المعتقدات فإن الأساطير والحكايات الشعبية نقلت لنا أن القدماء كانوا يقدمونه كنذراً للمعابد قديماً.

(*) يلعب الحبّل السري هذه الأيام دوراً كبيراً في علاج كثير من الأمراض المستعصية. لذا ففي أوروبا وأمريكا هناك بنوك مثل بنك الدم لحفظ الحبّل السري للوليد إن أراد الأهل الاحتفاظ به، وهم يخبرونهم قبل رميه، وتدفع الأسرة عليه رسم حفظه، وأن مرض الطفل مستقبلاً يطعمونه من مواد موجودة فيه حسب الحالة المرضية.. كالسرطان مثلاً الذي يمكن أن يعالج من نقي العظم عند أحد أفراد عائلة المريض.

وكان يعتقد في الماضي أن من لا يحضر قطع سرّة المولود من الأطفال ثم يدخل بعد قطعها تحوّل عيناه. وكانت العادة أن يبقى أهل الوليد على السكين التي قطعت بها السرّة ما دامت أمه جالسة عنده فإذا قامت حملتها معها وتظل تفعل ذلك أربعين يوماً حتى لا يصيبها شيء من الجان حسب اعتقادهم⁽¹⁾.

ويتم التعامل مع المشيمة (الخلاص) بطرق مختلفة وفي مناطق كثيرة إن لم يكن في كل أنحاء مصر. فلكي تضمن بعض الأمهات طول العمر لأطفالهن تأخذ قطعة صغيرة من الحبل السري وتلفها بفتيل من القطن، ويوضع هذا الفتيل في مصباح فخار يضاء بالزيت، ثم يشعل ويوضع في قارب صغير ويلقى في النهر ليسير مع التيار. وهناك من يأخذ قطعة صغيرة من الحبل السري ويضعه في قطعة من القماش القطن ثم تخاط وتعلق بقطعة خيط حول رقبة الطفل، وبعد فترة قصيرة توضع هذه القطعة مع بعض التعاويذ الأخرى، في حجاب جلدي صغير ولا بد أن يحمله طوال حياته، ومن المعتاد أن تعلق أي تعويذة في الرقبة، ولكن الحجاب يعلق تحت الإبط الأيمن للطفل الوليد. وإذا كانت المرأة لديها رغبة قوية في أن يكون لها طفل آخر تقوم بدفن المشيمة تحت عتبة بيتها، وهي تفعل ذلك بحيث عندما ترغب في أن يكون لها طفل آخر تخطو فوق المشيمة المدفونة ثلاث أو خمس أو سبع مرات^(*). فهناك اعتقاد بأن روح المشيمة تدخل جسمها مرة أخرى لكي تولد من جديد كطفل مكتمل بالطريقة العادية⁽²⁾. كما يعتقد بأن دفن الخلاص الناتج عن ولادة الأم تحت شجرة أو بجانب ضريح ولي من الأولياء للاعتقاد في أن هذه الممارسة سوف تجلب الخصوبة والرزق وتحمي الطفل من الأعمال السحرية في حالة الحصول عليها.

1 شوقي عبد القوى عثمان، الطفل واحتفالات مصر وأعيادها قبل الحكم العثماني، مجلة الفنون الشعبية، العدد 18، يناير - فبراير - مارس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م، ص 104.
(*) يحمل العدد (7) سبعة مثلاً بداخله قداسة خاصة في المفهوم الشعبي، فيتخذ هذا العدد أبعاداً واسعة يختزل في مخزونه الكثير من التأويلات والاستنتاجات، كل يأخذها من نظريته ومن زاويته التي من خلالها ينطلق في التأويل على أساس الثقافة التي يحملها أو يكون قد اكتسبها. كما يحمل العدد ذاته دلالة اعتقادية سحرية. والإيمان بالخواص السحرية للأعداد يرتد إلى الوثنية الإغريقية أساساً. كما يشكل رقم سبعة حجر زاوية في السحر الذي يبنى على الإيمان بتأثير العلويات، وفي مقدمتها الكواكب السبع السيارة، في السفليات، ويشيد قائمة من التناسبات: الملوك السبع العلويات والملوك السبع السفليات... وهكذا.

2 وينفريد بلاكمان، الناس في صعيد مصر، مرجع سبق ذكره، ص 43.

وهناك من يخشى من أن تأكل القطعة الحبل السري لأطفالهم، وإذا تحقق ذلك فاعتقادهم بأن هذا المولود سيموت حتماً عما قريب. وبالتالي يسعون لدفنه في مكان مقدس حتى يكون له مكانة اجتماعية أو علمية كمسجد أو كنيسة أو مدرسة أو جامعة على أمل أن يكون طفلهم في المستقبل رجلاً صالحاً أو متعلماً أو مثقفاً كبيراً.

وهناك من يقومون بإلقائه في البحر أو في الترع بعد أن يمر عليه أذانين (أي صلاتين)، كما يوجد من يعتقد في أهمية إلقائه في محل ذهب مثلاً أو شادر خشب ليقال أنه سيكون غني أو في وكالة ليكثر رزقه، وهناك من لا يهتم به فيرميه في القمامة. كما يعتقد أن المرأة التي يموت أولادها فتقوم بدفنه معه ملح ومسمار وعيش أو ترميه في مياه جارية.

وهناك من يكحل الطفل سواء كان ذكراً أو أنثى، ويلبس الذكر ملابس الأنثى حتى لا يتأذى من العين الحاسدة. أما إذا كان الولد الوحيد فيضعون في أذنه حلقة، وهناك من يلبسه من لباس العالم لمدة سنة كذدر، وكذلك يطولون شعره بحسب المدة التي ينذر لها. كما يؤثر جنس الوليد على موقف كل من الوالدة والوالد والأسرة، وهو يمثل نوعاً من النفاؤل بالأولاد والبنات في الوقت ذاته حسب احتياج الأسرة. ولا يتم إعلان جنس الوليد على الفور ولكن يحدث ذلك بعد ثلاث أيام أو بعد السبوع أو بعد الشهر الأول أو بعد الأربعين أو بعد مرور 16 شهر حتى يخرج من منزله خوفاً من حدوث أي مكروه (حسد، موت).

كما توجد عادة حلاقة شعر البطن للمولود يوم السبوع ووزن مقابله ذهب، وتقوم الأم أو الأب بالتصدق به لكونه سنة عن الرسول ﷺ. وهناك من يقوم برمييه في البحر، مع الحرص الشديد على ألا يراه أحد وهو يلقيه؛ لاعتقادهم بأن ذلك يجعل الشعر الجديد جميل وطويل عند طلوعه. وهناك من يحلق شعر رأس الطفل (شعر البطن) ويضعه في ورقة ويحفظه بعناية بعد قصه، على ألا يرمي به في الهواء، بل تطوى بعناية داخل ورقة ووضعها في أحد الشقوق أو دفنه (*).

(*) وقد ذكر "دي شابرول" سنة 1798م في "وصف مصر" قيام المصريين بممارسة أخرى مضحكة، تعود إلى ضعف نظامهم الروحي، فيحرص المسلم منهم بعد أن يقص شعر رأسه أو لحيته على ألا يرمي بها في الهواء، بل يطويها داخل ورقة ثم يضعها بحرص في أحد الشقوق، ويتبع الشعب كله على وجه التقريب هذه العادات العجيبة. دي شابرول، وصف مصر، مرجع سبق ذكره، ص44.

وبالنسبة للأربعين يوماً الأولى بعد عملية الوضع، فإنها تعتبر هي "الفترة الملائكية" بالنسبة للطفل، حيث تتولى الملائكة "حراسته من الأرواح الشريرة" ومع هذا، فلا بد للأم من أن تبقى ملاصقة لطفلها عن قرب، ولا تتركه وحده أبداً – لئلا تحاصره الشياطين – في حالة ما إذا تخلت الملائكة عن حراسته لأي سبب. وإذا اضطرت الأم لترك الطفل لبرهة قصيرة، فلا بد من وجود شخص آخر يتولى رعايته⁽¹⁾. وإلا أضرب به "إخوانه" من الجان.

وأكثر ما يمكن رصده بالنسبة للمعتقدات الشعبية الخاصة بالطفل هو الاعتقاد في الحسد كسمة من أوضح سمات الوجدان الشعبي المصري، وهو يقوم أساساً لكثير من المأثورات والممارسات الشعبية التي تشكل جزءاً هاماً من سلوك الإنسان المصري الشعبي، ويرتبط الحسد عند العامة بالعين والنظر، والمال والعيال من أكثر الأشياء التي تتعرض للحسد في اعتقادهم، ووسيلة توقيه عندهم هي "الرقوة من الحسد". ولذا يلجئون إلى عمل "عروسة" من الورق تصور لهم الشخص الحاسد، ويتقنون موضع عينها بالإبرة، ثم يحرقونها في النار مع مخلوط من الملح والشبة والفسوخ، إبطالا لأثر العين ودرءاً للحسد، وقد يتبع هذه الإجراءات بإجراء آخر يلزم الشخص المحسود، أن يلبس حجاباً فيه رأس هدهد محنطة أو جزء من ذيل كلب، أو بعض أسنان ذئب، أو عقرب مجفف، أو حرباء مجففة أو بعض قطع النقود الصغيرة مع قليل من الملح⁽²⁾. كما يقوم بتعليق "خمسة وخميسه أو فاسوخة أو خرزة زرقاء" على صدور الأطفال، أو آيات وسور قرآنية (المعوذتين) انقاء للعين والحسد. وكذلك هناك من تلبس طفلها لبساً مهلهلاً وتهمل في تنظيفه في شهوره الأولى انقاء للحسد.

أما عن تسمية الطفل المولود، فهي من الأمور التي يجب الانتباه إليها في الأسبوع الأول من ولادة الطفل، بمعنى قبوله رسمياً في المؤسسة الاجتماعية "الأسرة". وللإسم الذي يطلق على الطفل خواصاً لها تأثيرها على مستقبله حسب الاعتقادات الشعبية، حتى أن البعض يذهب في اعتقاده إلى أن الروح لا تدخل في الجسد إلا بعد التسمية، فالإسم والوجود الروحي شيء واحد. وتجري التسمية بعد استدراج الإسم من الواقع الديني أو المناسبات أو الظروف المحيطة، وبعد

1- غريب سيد أحمد وآخرون، علم الاجتماع العائلي، مرجع سبق ذكره، ص127-129.
2- فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، بيروت، دار النهضة العربية، ط2، 1980م، ص127.

اختيار الاسم يَدَبَحُ المقتدر مباشرةً "العقيقة" ليخلص طفله من أذى التابعة.

أما عن مصادر تسمية الوليد فقد يكون من الأسرة النبوية أو من القرآن الكريم أو أولياء الله الصالحين أو الأجداد أو المتوفين. أو من الأسماء الحديثة أو أسماء القديسين بالنسبة للمسيحيين وذلك للبركة مثل: مريم وعيسى وحنان كأسماء تسمى بها المسلمين وغير المسلمين. كما توجد أسماء متشابهة لا تعرف بأنها مسلمة أو قبطية مثل: رانيا وسوزان وميرنا. ويعتبر اسم البنت عورة ولا يليق أن تتأذى به ويتغير في حالة وفاة الوليد إحياءاً لذكره⁽¹⁾.

وتسمية المولود بأسماء غير حقيقية خوفاً من الحسد. وهناك من يكني بأسماء الحيوانات، وهي عادة قديمة في تراثنا الشعبي، الغاية منها هو الاعتقاد بالاستئثار بصفة الحيوان المسمى على اسمه. فيسمى أسداً تكتيماً بقوة وشجاعة الأسد، وتسمى البنت مهي أو ريم تيمناً بجمال عيون المهي. وقد تأخذ التسمية باسم الحيوان بعداً أخلاقياً، إذ يكنى بما للحيوان من صفات حميدة، وأحياناً تأخذ شكلاً معقداً ومفهوماً دينياً، إذ يراد بالتسمية إخافة قرين^(*) السوء فلا يعود يقترب من الطفل للإساءة إليه. فيتم تسمية المولود بأسماء الوحوش اعتقاداً بأنها وسيلة تدفع وتخيف قرينة السوء عن إلحاق الأذى بالمولود.

كما يوجد طبقاً للمعتقد الشعبي الطفل المكبوس: وتعني الكبسة في اللغة الاقتحام على الشيء، وتعني دخول المرأة الحائض أو غير الطاهرة على النفساء، فيزرق جسد الطفل ويختنق، ويعالج الطفل بجلب خرزة "الكباس" ويتم حمامه من على هذه الخرزة كما يعتقد. أو تقوم الأم بجمع سبعة "حبات" طحين من سبعة بيوت من بيوت الجيران؛ وبخاصة الذين تزوجوا ضرائر ويصنع منها "شراكة" من الخبز، ويطبخ العدس بعد تنقيته على هيئة سليقة ويحمم الطفل بجزء من هذه السليقة، وثقور الشراكة ويمرر الطفل منها سبع مرات، ثم

1 محمد أحمد غنيم، دورة الحياة من الميلاد حتى الزواج، مرجع سبق ذكره، ص290.
(*) القرين للمولود الذكر أو القرينة للأنثى، هو عبارة عن طائر وهمي يحوم فوق رأس الإنسان. ولكل إنسان قرين أو قرينة خاص به، يختلف لونه تبعاً للون بشرة صاحبه وتنوع أفعاله بين الخير والشر، تبعاً لأفعال الإنسان نفسه، وتلاقي القرينة نفس المصير الذي يلاقيه صاحبها بعد موته. ويعتقد بأن قرينة السوء (قرينة الأم السيئة) تهاجم المولود أو الجنين قبل الولادة مسببة له المرض والموت (كون القرينة لا تتجرب في نفسها الحسد). لذلك كثيراً ما نصادف لجوء الأمهات إلى السحرة لكتابة الأحجية التي تدفع قرين السوء عن أذية الجنين أو الطفل بعد الولادة.

يمرر من فتحة "مدرقة" الأم سبع مرات ويمنع الآخرون من تقبيله وتوضع عليه خرزة "خضرم" وهي خرزة الكباس، ويقال عندئذ: لا كباس ولا نعاس ولا وجع في الراس. وهذا يعني إعادة إنتاج الطفل المكبوس بهذه المعتقدات ليعود سوياً من جديد.

كما يوجد الطفل المُبدّل: ويعتقد الناس في الأوساط الشعبية أن الطفل هو من أولاد الإنس قد جرى استبداله بأحد أولاد الجن، ويعالج بحمله إلى قبور الأنبياء والصحابه والأولياء لينال بركتهم وإعادته إلى حالته الطبيعية، كما يعالج بأن يُحمم بمقدار من الماء يعادل وزن المصحف ويرشق الماء على سلاسل حجرية دون أن يصل إلى الأرض، أو تحمله امرأة بلغت سن اليأس إلى سيل أو نبع مجاور دون أن تكلم أحداً في طريقها وتغطسه في الماء ثلاث مرات لحظة رفع أذان صلاة الجمعة؛ ويعزى التبدل إلى أن الداية لم تذكر اسم الله عليه عند توليده.

وهناك الطفل الملموس: وهو الذي تلمس الداية أعضائه التناسلية لمعرفة جنسه فيصرخ ويعالج برُقّية.

ويمثل ختان الطفل أهمية خاصة في المعتقد الشعبي المصري بشكل خاص. حيث يعقب عملية الختان للطفل بعض الممارسات الاعتقادية شديدة الشيوع لدى بعض المجتمعات وخاصة الريفية منها، مثل: زيارة الطفل لمقامات الأنبياء والصحابه والأولياء للتبرك بهم، وتعلق الأم فوق كتفه أو فوق صدره خرزة زرقاء. ولا يحضر عملية الختان "امرأة جُنُب" لأن رؤية الجُنُب للمختون تزيد من آلامه ونزيف الدم له. ويرمز الختان إلى الذبح الأصغر (الفداء) عند بعض الباحثين، وهو ذبح مباشر لعضو الذكر، أما الذبح الأكبر فيكون في عبد الأضحى ويرمز له بذبح كبش، وكأن التطهير بالذبيحين يتم من خلال الدم. كذلك عدم إجراء احتفال الختان إلا في ثالث يوم أو سابع يوم بعد أن تتم عملية الختان التي تجري سراً، وأيضاً قلفة المطهر تُعلّق له في كفه، أو تدفن في مكان بعيد، أو تحت نخلة لينمو الطفل باسقا مثلها، أو تدفن عند دكان صائغ ليصبح ثرياً مثله.

وإذا تحدثنا عن الطهارة في هذا الطقس الشعبي فمن الضروري الإشارة إلى المعمودية عند الأطفال المسيحيين، ويرتبط بها ألوان من العقائد والممارسات الاجتماعية ذات الجو الشعبي الاحتفالي. فالمعمودية هي أحد الأسرار الكنسية عند المسيحيين، فقد جاء في سفر أعمال الرسل أن وزير ملكة الحبشة بعد أن بشره الشماس "قليس"

بالمسيح طلب أن يعمده فعمده فلييس بالماء... ، وتمنح المعمودية بالتغطيس أو بالصب أو بالرش، ويجري العماد في العادة يوم سبت النور 4/25 (شم النسيم) من كل عام أو في أحد عيد الفصح، ويتصل بالعماد الإشبين وهو العراب أو الوكيل أو الأب الروحي، والعماد عند المسيحيين طقس يُتَظَهَّرُ به الطفل المسيحي من الخطيئة الأولى، وهو يقابل الختان عند اليهودي والمسلم (1).

وتؤكد الممارسات التي تصاحب الختان هلع المصريين من الحسد وخوفهم منه، ولذلك تتعدد الإجراءات الوقائية التي يتخذونها لمنع هذا الشر غير المنظور. وسيد هذه الإجراءات في هذه المناسبة وغيرها هو الملح الذي يستخدم لمنع العين الشريرة الحاسدة كعملية وقائية حافظة للآم وطفلها، وذلك بالنثر حتى يحجب عن تلك العين الأشياء الذي يخاف عليها من الحسد وتكثر الأقوال الشعبية التي تشير إلى الملح في المعتقد الشعبي مثل: حصوة في عين اللي ما يصلي على النبي، وفي الأغنية الشعبية: يا أم المطاهر رش الملح سبع مرات. ويبدو أن هذا المفهوم جاء من أن الملح مادة حافظة وأنه حادق فيوضع أمام العين الحاسدة يحجب عنها ما لا يراد له أن يحسد.

وأخيراً تأتي احتفالية السبوع في اليوم السابع من ميلاد الطفل، وهي ترتبط بالعديد من الممارسات الاعتقادية والمعتقدات التي تدور حول إمكانية إيذاء الجن أو القرين للطفل الذي يعتقد أن يلزمه منذ لحظة ميلاده إذا لم يتم أداء الممارسات المختلفة للسبوع والتي يعتقد أيضاً أنها تؤدي إلى صرف هذا الجن عن الطفل الوليد. حيث يتم عمل الأحبة والتمائم "للأم والطفل" ويطلق البخور، ويرش الملح، مع وضع خليط من الملح وبعض الحبوب كالقمح والذرة والأرز والفول والحلبة والعدس والحبّة السوداء "الحبوب السبع" في إناء يوضع بجوار المولود في الليلة السابقة "تبييتة المولود" لطرد الأرواح الشريرة وإبطال السحر. إلى جانب وضع نقوداً معدنية من فئة الربع جنية أو البريزة والشلن والقرش في الماضي. كما توضع قُلَّة بها شمعة كبيرة تظل مضيئة بجانب الطفل الوليد حتى تتطفئ من تلقاء نفسها، وذلك اعتقاداً بأن ذلك يعد إكراماً للملائكة واعترافاً بفضلهم في حراسة الطفل من الأرواح الشريرة.

1 أنطون فرغاني، المجلد في تاريخ الكنيسة، القدس، ط4، (د.ت)، ص39.

ويتم تبخير الأم وهي تحمل طفلها بأن تخطو على البخور سبع مرات ثم يوضع الطفل في غربال وتخطو عليه الأم أيضاً سبع مرات، حيث يعتقد أن هذه العملية تقي الطفل من الإصابة بالقرع إذا خطا فوقه أحد، ثم يغربل الطفل بهزه يمينا وشمالا. وعلى مقربة من الغربال تدق القابلة في الهون لإحداث صوت يجذب سمع الطفل ليعتاد الضوضاء ولا تفزعه الأصوات القوية فيما بعد.

ومن أهم سمات احتفالية السبوع هو القيام بذبح حمل يبلغ عاماً. وفوق دمائه السائلة يتم تخطية المولود سبع مرات حيث يفترض أن: الدم السائل "يمنع الآثار السلبية التي قد تتجم عن "عين الحسود". وفي نفس الوقت تعتبر الذبيحة بمثابة ضحية مقابل حياة الطفل. حيث تُذبح للوليد الذكر "كبش" واحد، والأنثى "شأتان" فيما اصطلح عليه في السنة النبوية "بالعقيقة" (*).

كما يستقدم معظم أفراد مجتمع الدراسة بعض الفقهاء من حفاظ القرآن ليتلوا ختمه من القرآن (بعض سور القرآن الكريم كسورة يس والملك.. وغيرها).

أمّا بالنسبة للمعتقدات الشعبية المرتبطة بخروج الوليد من منزله عقب ولادته فلا يسمح للوليد بالخروج من المنزل إلا بعد مرور أربعين يوماً، ويفضل الخروج في هيئة غير منظمة خوفاً من الحسد حتى لا تكسب الأم. وتكون الزيارة الأولى غالباً إلى أهل الأب والأم، أو تكون لأحد الأولياء الصالحين. كما تقوم الأم برش الملح في كل أركان بيتها وعند جيرانها لحمايته من قرينه الموجود تحت الأرض. ويفضل أن يكون خروج الطفل من منزله في بداية الشهر العربي، كما يفضل أن يكون الخروج يوم الجمعة بعد صلاة المغرب، وأن يرتدى الطفل مصحفاً صغيراً.

وهناك من يمتنع زيارته للطفل المولود حديثاً وأمه؛ لما يرتبط ذلك بنوع من التشاؤم مثل: العاقر الميؤس من حملها، أو التي تشتت جنساً من الأطفال، أو امرأة حائض، أو دخول اللحمة أو الباذنجان الأسمر

عليه، أو المرأة المتزوجة حديثاً، أو المرأة التي فطمت ابنها حديثاً¹ ولوقاية الطفل من الحسد وخاصة الذي تتجم عنه أعراض مرضية متنوعة تلجأ غالبية الجماعات — بصفة خاصة ذوو الأصول الريفية —

(*) الأساسي في هذا التقليد هي قصة النبي إبراهيم الذي افتدى ابنه الذبيح إسماعيل بذبح كبش من السماء.

1 محمد أحمد غنيم، دورة الحياة من الميلاد حتى الزواج، مرجع سبق ذكره، ص210.

إلي ذبح إحدي الحيوانات التي تؤكل علي عتبة المنزل أو في أي مكان قريب وإن كانت تفضل الحالة الأولى. ثم يغمس أحد أفراد الأسرة أصابعه الخمسة في دم الحيوان المذبوح ليضعها علي باب المسكن "تخميس" أو علي جدرانه من الداخل أو من الخارج. وقد تكنفي بعض الحالات بوضع قطرة من دم الحيوان علي جبهة أفراد الأسرة، خاصة من يخشي عليهم من الحسد كالأطفال، كما يحرص البعض علي الاحتفاظ برموز أخرى شعبية — قد يكون لبعضها مضامين دينية — كالعين رمزاً للحسد، والمسبحة، والكف وغيرها.

وهي تصنع من خامات مختلفة حجرية أو معدنية ويدخل في ألوانها غالباً اللون الأزرق لدلالته علي درء الحسد، وتزين أحياناً بعملات معدنية صغيرة أضفاها المبدع الشعبي لجعلها أكثر جذباً للعين الحاسد. وإذا وقع الطفل ليلاً يرش الماء المحلى بالسكر في نفس المكان حماية للطفل من أذي القرين. كما أن رش الماء بعد فعل أو حدث ما، يعني إبعاد هذا الحدث، والتعوذ منه، وكذلك إبعاد الأرواح الشريرة والموت عن هذا الطفل، وتعتمد ممارسات أخرى علي المياه كعنصر حوض مياه — أو زير به ماء — سبع مرات مرودة: "وحياة مين بناه وعلاه تاخذ نكده وتعطيه صفاه"، ثم تجل وهي تحمل الطفل مرودة "الكلب النباح أخذ الشر وراح".

وفيما يرتبط بعملية حمل الطفل من معتقدات فإنه يسمي علي الطفل عند حملة — البسملة — ولا تتركه الأم في غرفته وحيداً خوفاً عليه من أن يعبث به الجن أو قرينه الأرضي. وإذا ما عطس الطفل فإن أمه أو من يحيطون به يستدعون بعض الكلمات ذات الدلالة الاعتقادية التي يحاولون من خلال استخدامها إلى صرف أوجه الشر والحسد عن وليدهم الذي لا حول له ولا قوة في الدفاع عن نفسه بالنسبة للعالم الغير مرئي أو الغير منظور. فيقال له عندما يعطس مثلاً: "اش خدت الشر وراحت" أو "اسم الله والحارس الله"، أو "يرحمك الله"، أو "خمسة وخميسه علي اللي شافوك ولا صلوش علي النبي"، أو "اسم الله علي أختك قبل منك"، أو "امشي عنه ياعطاس"، أو "الحمد لله أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".

وهكذا عندما ينتائب الرضيع يقال له: "الله أكبر الولد اتحسد" ويتم عمل حجاب له لوقايته من الحسد، أو "الله أكبر علي اللي شافوك ونظروك"، أو "الحمد لله"، أو يتم عمل لعبة عروسة من الورق ويُرقى بها الطفل وتُحرق ويختر بها الطفل الصغير لصرف عين الحسود.

وفي حالة تحول الطفل من حالة الهدوء إلى حالة الصراخ وكثرة الحركة فيعتبر الطفل حسب المعتقد الشعبي "محسود"، أو أن أخته "قرينته" التي توجد تحت الأرض زعلائة منه، أو يكون قد مُسَّ من الجن، أو أن الملائكة قالوا له: "إن أمك ماتت وهو نائم" ويبتسم عندما تقول له الملائكة "أمك عايشه أبوك هو اللي مات". وهناك من يقوم بعمل تحويطة على يد شيخ معالج.

وفيما تتخذ من ممارسات اعتقاديته تتعلق بخلع الأسنان الأولى (اللبنية) للطفل، فقد اعتاد الناس على رمي السيئة التي تم خلعها في اتجاه الشمس "في وجه الشمس" مع قولهم: "يا شمس يا شمس خذي سنة الجاموسة وهاتي سنة العروسة". وهناك اعتقاد بأن الطفل عندما يرمي هذه السنة في البحر يكون رزقه واسع.

أما في مرحلة الطفولة المبكرة والتي تمثل في تأثيرها على تنشئة الطفل وسيلة لغايات رمزية أو دلالات اعتقاديته تتعلق بعالم الكبار وانشغالاته، يوظف الطفل فيها لأنواع من الإشارات وصيغ التجسيد، بما يجعل (الطفولة) قيمة دلالية متسعة لعوالم من الدلالات الاعتقادية المتنوعة التي يستمدّها من المحيطين به سواء كان من الوالدين أو من إخوته أو المحيطين به في سنوات طفولته الأولى.

وعلى الصعيد الثقافي يصبح الطفل مستعداً في هذه المرحلة لسماع الأناشيد والحكايات التي يتم من خلالها بث بعضاً من المعارف والقيم الخاصة بالطفل داخل الأسرة، والمعتقدات التي يُحتَكَمُ إليها.

وتمثل الحكاية الشعبية(*) التي تنقل بها معرفة الأجداد والآباء وخبرتهم إلى الأبناء والأحفاد "شفاهة" حول الخوارق والأساطير الخرافية التي تنتمي في مجملها إلى عالم الخيال واللا واقعية؛ حين يجمعونهم في الأماسي أو أوقات الفراغ، الممثلة الأدائية الحقة المستوعبة لقيم الطفولة والمتجهة إليها، هي الفاعلة في ترسيخ المعتقدات الشعبية الخاصة بالكبار لدى صغارهم، في حدود وعيهم واعتباراتهم العمرية والسلوكية، بشكل متعمد منهم أو غير متعمد طبقاً للعادة السلوكية أو القولية — فيما بين الكبار وأطفالهم. وخاصة إذا ما تقمص الوالدين شخصية أطفالهم والنزول بالمستوى

(*) الحكاية الشعبية: مجموعة من الأخبار تتصل بتجارب الإنسانية منذ القدم واتصالها بهذه التجارب يعني أنها وجدت حيث ومنذ وجد الإنسان. أحمد كمال زكي، الأساطير: دراسة حضارية مقارنة، بيروت، دار العودة، 2، (د.ت).

العقلي في خطابهم إلى مستواهم عند مخاطبتهم حتي يسهل على الطفل استيعاب رسائلهم الممثلة في الحكايات أو غيرها؛ التي يهدف الوالدين من خلالها بث قيم سلوكية مرغوبة أو النهي عن تلك السلوكيات والقيم الغير مرغوب فيها.

فيصبح الطفل في هذه المرحلة مع تطوره النفسي والجسماني والعقلي والثقافي، طفلاً كان، أو إنساناً ناضجاً هو المتلقي والمؤدي في الوقت ذاته لكافة أشكال الممارسات والسلوكيات التي تحمل بطياتها دلالات اعتقادية متنوعة طبقاً لما يجابهه من سلوكيات ومواقف اجتماعية مختلفة ومتنوعة، والتي قد تلقى قبولاً ودعماً من أهله وأقاربه وأصدقائه في حالة كونها تتفق ومعتقداتهم وثقافتهم بما يدعم وجودها ويؤيدها ويعمل على إستمراريتها داخل بيئتها، أو تلقى رفضاً أو توبيخاً أو شكلاً من أشكال الضبط الاجتماعي الذي قد يصل الأمر فيه إلى حد الطرد من الجماعة عندما يختلف معها في معتقداتها؛ بما يهدد من كيانها ويضعف من قوتها بين الجماعات المحيطة بها داخل المجتمع الكبير.

كما تحمل الحكاية فوائد تربوية وتعليمية تهدف إلى تحقيق غايات أخلاقية واجتماعية، فالطفل في الحكاية الشعبية قد يكون نفسه بطلاً، وهو في جميع الأحوال متلق ذكي لكل محمولات الحكاية، وقد يتمثلها في سلوكه اليومي وحياته المعاشة. كمناصرة قوى الخير على الشر التي تحاول أن تهدم قواعد الخير والمحبة، كما توحى بذلك بعض عناصر الحكاية الشعبية مثل حكايات: أمان الغولة، الجنيات الثلاثة، والحيوانات المختلفة سواء الأليفة منها أو المتوحشة، وهذا هدف تعليمي وأخلاقي نجده في كل حكاية إيجابية الملامح. مثل قصة: الشاطر حسن، الأقزام السبعة، المصباح السحري، السندباد، الثلاث معزات، ألف ليلة وليلة، ست الحسن والجمال، النداهة"، إلى جانب بعض القصص النبوي.

وتتدرج الحكايات حسب النوع والسن والهدف من الحكاية في اختيار نوع الحكاية للطفل، مع الأخذ في الاعتبار أهمية توافر عنصري التشويق والإثارة مع احتواء كل حكاية على بعض القيم والمثل العليا التي يرغب الملقى للحكاية غرسها وبثها لدى المتلقي "الطفل".

أما فيما يرتبط بالحكاية الشعبية وما تتضمنه من معتقدات شعبية يتم بثها عبر الحكايات إلى الأطفال، فتمثل الحكايات الشعبية التي تنطوي

على عناصر التشويق والإثارة بالنسبة للقوى غير المنظورة وكيف تصور له الملائكة ذات الدلالة الخيرية والأشياء الجميلة، والعفاريت التي تُشَبَّه وتمثل بالأشياء القبيحة ذات الدلالة الشريرة في الحكاية. فنجد مثلاً: الأم التي تخوف طفلها عندما يبكي بقدوم العفريت أو أنها سوف تؤذيه إن لم يكف عن البكاء. وفي حالة قيامه بأفعال طيبة ومحمودة تخبره بأن الملائكة سوف يحبونه لكونهم يحبون الأطفال الطيبين. وتتدرج معرفة الأطفال بالملائكة والعفاريت بارتقائهم العمري وما يتم بثه لهم من حكايات مختلفة توضح لهم أن الملائكة أجسام نورانية ترتدي ملابس بيضاء وأن الملائكة مخلوقة من نور وهي رسل الله إلى الأرض، أما العفاريت أو الجن فيسكنون تحت الأرض، وهناك بعض الأفعال التي يجب تجنبها من الأطفال حتى لا تظهر لهم العفاريت مثل: عدم الكلام في الحمام، أو سكب المياه الساخنة في الحمام... إلخ.

كما توجد بعض الممارسات التي قد توصل لهذه الأفكار الاعتقادية لدى الأطفال وخاصة إذا ما كانوا عنصراً أساسياً في مثل هذه الممارسات التي لا يمكن إتمامها بدون الطفل. مثل: قيام بعض المشايخ (الدجالين والمشعوذين) من استخدام الأطفال صغار السن للاستفادة منهم في فتح المنديل في حالات السرقة، أو للاستدلال على أماكن كنوز ما، أو لمعرفة الحظ أو البخت لكونهم ليسوا مكرين وظاهرين أشبه ما يكونوا بالملائكة.

وخير دليل على ذلك اعتقاد العامة بأن مصير الطفل الذي مات في سن الرضاعة مثلاً يصبح ملاكاً كالعصفور في الجنة الذي يأخذ بيد والديه إلى الجنة، فالبنات حور الجنة، والولد ملاك طاهر خادم الجنة. أما عند المسيحيين فيكون هذا الطفل من القديسين.

ومن خلال ما سبق يمكن تفسير المعتقدات السابقة في مجتمع الدراسة باعتبارها جزءاً لا ينفصل عن النسيج الثقافي للمجتمع الذي ينتقل من جيل إلى جيل عبر العصور عن طريق التنشئة الاجتماعية. كما أن هناك معتقدات شعبية كثيرة لا تسمح الدراسة بالتوسع في ذكرها، وإنما أوردتها هنا كنموذج يمكن القياس عليه عند الشروع بالتفكير بإجراء مسوحات غايتها جمع هذه المعتقدات والاستفادة منها أدبياً وبحثياً وخاصة فيما يرتبط بعالم الطفولة وتنشئتهم.

وهكذا تعتبر التنشئة الاجتماعية التي تقدمها الأسرة لأطفالها ضرورة ملحة في مقابل التحديات التي تحاول في المرحلة التاريخية الحالية تهميش دور الثقافة الشعبية العربية في تنشئة الأجيال. فالثقافة الشعبية تعمل على تنشئة الطفل وتربيته وربطه بتراثه التاريخي والقومي، مما يساعد على بناء شخصية متكاملة للطفل متشعبة بحصيلة تفاعل الإنسان مع نفسه ومجتمعه وبيئته المحيطة به. فمعرفة المعتقدات الشعبية كواحدة من ميادين الثقافة الشعبية تسهم في بناء شخصية ناضجة واعية بمعالم حضارتنا العربية والإسلامية العريقة ومتشعبة بمعاييرها الثقافية والعلمية والجمالية.

هذا إلى جانب محاولة استثمار المعرفة بهذه المعتقدات الشعبية المؤثرة والفاعلة في التنشئة الاجتماعية للأطفال خلال عمليات التنمية الاجتماعية الشاملة، وخاصة المرتبطة بالأطفال لتوظيفها بما يخدم صالح الطفل وإعداده للمستقبل إعداداً سليماً يمهد الطريق لأجيال الغد للإسهام الفعال في تقدم المجتمع.